

علاقة الآباء بالأبناء

بقلم المربية الفاضلة

الدكتورة نزيب الحكيم

بيننا في مقالنا السابق الرابطة بين الآباء وأبنائهم من الناحية الطبيعية والعقلية والانفعالية والاجتماعية ، بحيث لم يبق هناك شك في صحة وجود تلك الروابط ؛ على أنه قد يكون من السهل أن نتكلم عن هذه العلاقات ونثبت وجودها ، دون أن نقدر قيمها الحقيقية كعوامل أولية هامة في توثيق الصلات بين الآباء والأبناء ؛ ولقد يكون من العسير أن ترى كيف تدوم تلك العلاقات صحيحة ، مع استمرار محاولة العمل على تقويتها وعدم قصم عراها .

فاذا آمننا بأن العلاقات بين الآباء وأبنائهم تتكون بواسطة الاتجاهات النفسية المعقدة ، وأن كل اتجاه أو ميل نفسى يشتمل على تجارب عدة ، لايقنا أن كلاً من الآباء والأبناء يتأثر بوحدات ومجموع التجارب التي تحصل بينهما .

كيف تنمو الاتجاهات ؟

الميزات العقلية والطبيعية المختلفة تؤهل كل طفل لتجارب مختلفة ، والتجارب المختلفة هذه تنشئ اتجاهات وميولاً مختلفة أيضاً .

وبما أن كل إنسان له نشاطه الذاتى ، فإن كل نشاط يشترك فيه الآباء وأبنائهم هو تجارب مشتركة ، وعلى هذا الاعتبار ، فالتجربة معناها عمل ، وكل شيء يعمل له نتيجة ، ونتيجة هذا العمل إما شعور إقناع أو عدم إقناع .

ونتيجة كهذه إما أن تقوى أو تضعف العلاقات الأبوية والبنوية . فإذا كانت النتيجة شعور إقناع فكل فريق يعنى تكرار نفس العمل ، أما إذا كانت المكس فإتينا نتجاشى إعادته . وهنا نلاحظ أن نشاطنا يقوى أو يضعف تبعاً لشعورنا الخاص نحو كل شيء نعمله . فاذا رغبتنا فى تكرار عمل واحد عدة مرات ، فيمكننا أن نقرر - دون أدنى تردد - أن اتجاهنا خاصاً قد نما نحو ذلك العمل .

مثال ذلك : إن ميلك نحو شخص خاص أو نحو شيء معين ، توضحه أفعالك بالنسبة لهذا الشخص أو ذلك الشيء .

فمثلاً لو قابلت شخصاً لأول مرة ، وشعرت بشعور متنافر نحوه ، فإنك تمجاشي لقائه مرة أخرى . ولقد تصرح بأنك لم تحب هذا الشخص ، (وأنت أحسست أنه ثقيل الظال عليك) ، وإذا تكررت شعورك هذا كلما رأيت نفس الشخص فإن ميلك إليه يكون ميل عدم صداقة ، واتجاهك نحوه اتجاه عداوة ، فتعمل على مقاطعته كلما استطلعت ذلك . فإذا كان ولا بد من مقابلته (كأن يسبب لك المواجهة اجتماعكما في بيئة واحدة أو مكان واحد لضرورة عمل أو مصلحة مثلاً) ، فإن علاقتك الاجتماعية تختلف كل الاختلاف عن علاقتك برجال ونساء آخرين تكون علاقتك بهم علاقة صداقة .

انظر إلى الطفل الذي يرسم شيئاً بسيطاً ، ويرى أن رسمه هذا يسر والديه على حقارته ، فإن الطفل يتشجع بهذا الشعور ويستمر يرسم مهما كان في ذلك من مشقة عليه ، فإذا لحظ أن محاولاته نجحت في اجتذاب رضاء والديه فإنك ترى ميلاً قوياً للرسم ينشأ بوضوح في الطفل خصوصاً إذا كانت له موهبة الفن . وقياساً على هذا نرى أن الاتجاهات النفسية هامة جداً في حياة الأفراد والجماعات حيث إن كل اتجاه أو ميل يتبع دائماً بعمل من أي نوع ، حتى ولو كان هذا العمل مجرد قرار لا ينفذ مطلقاً .

والقرار الذي لا ينفذ في حالة الأشخاص البالغين يمكننا اعتباره شدة حرص منهم . ولسكننا نعتبره في حالة الأطفال الصغار ، عناداً أو إهمال واجب أو عدم انتباه .

كيفية انماء الصلات:

عرفنا أن الصلات بين الآباء والأبناء نشأت في الطفل منذ ولادته ، ويصح للمرء أن يسميها عادات عملية ، أو عادات عمل الأشياء ، أو طرق عمل الأشياء . وهناك مئات الأشياء التي يعملها كل طفل يومياً ، فتشأ هناك مئات الميول المطابقة لتلك الأعمال ، فهناك الاتجاه نحو الغذاء والنوم واللعب والمشى والكلام والطاعة والصداقة ومشاركة المواطنين والحب والشعور بالمتين . ويشترك في تكوين كل هذا جميع أفراد الأسرة الواحدة ، وهذه الاتجاهات عوامل قوية في تربية الطفل ، فهي التي تشكل الأسرة والعلاقات الإنسانية ، وهي القوى الفعالة في حياة كل مخلوق إنساني .

وهذه الاتجاهات هي أسس جميع الأعمال الإنسانية المتوطنة ، والعلاقات الإنسانية الضرورية ، ومع هذا فنلاحظ أن الوالدين أكثر ميلاً إلى الإهمال من حيث التجارب التي يمرضان أبنائهما لها يومياً ، من وقت ولادتهم إلى سن البلوغ .

ومن الغريب أنهما لا يفهمان أو لا يريدان أن يفهما أن الاتجاهات التي نشأت في أبنائهما هي دعائم الصلات التي كوناهما بين نفسيهما وبين أبنائهما .

وكثير من الآباء يظنون أنه يمكنهم أن يكونوا أصدقاء لأبنائهم دون اعتبار صلات الصداقة التي تمت بينهم وبين أبنائهم بنفس الطريقة التي تنشأ بواسطتها علاقاتهم مع أي إنسان يصادقهم. ولكن الطفل لا بد خاسر بالنسبة لعلاقة كهذه ، لأنه عديم الخبرة ناقص التكوين ، غير مستكمل النمو الجسدي والعقلي ، أما الوالدان فكاملا النمو ، لهما خبرة ونزاهة يشتمون الحياة تمكنهما من فهم ما لم يفهمه الطفل بعد ، كما أن لهما قدرة على الطفل الصغير ، فمما لذلك يعرضانه للتجارب المختلفة .

وما لم ينتبه الوالدان إلى ماسيعود على الطفل من تلك التجارب ، فمن الممكن أن ينميا في الطفل اتجاهات مخالفة لما أرادا أن ينميا فيه .

الفتاة « سعاد » وعمرها اثنتا عشرة سنة ، لحظ عليها الهدوء الشديد ، والكتبان لأفكارها ، ولم تحدث والديها في شئونها الخاصة ، الأمر الذي أقلق أمها واضطرها إلى الجاهرة بأن الآباء يجب أن يكونوا خير أصدقاء لأبنائهم .

وسعاد هذه لازمتها دائما مربية كانت يقظة من حيث إرشادها إلى عمل أشياء مختلفة ، ولكنها لم تشجعها مطلقاً على إبداء رغبتها في الأشياء التي تريدها ، بل كانت دائماً تعنفها على أقل الهنات التي تصدر عنها دون أن توضح لها كيف أثقلت تلك الهنات الأشياء التي كانت تعملها ، مما جعل سعاداً تصل إلى حكم قاطع بأن كل شيء تسله إما أن يوافق أو لا يوافق عليه .

ببالغون ، تبعاً لميولهم الخاصة وحالاتهم النفسية . وكان والدهما رجلاً كثير الأشغال ، ولم يكرس شيئاً من وقته للتحدث إليها ، وكانت أمها مقنعة بالقاعدة « الأطفال ترى ، ولا تسمع » ، ولم تصرف أي جزء من وقتها معها أثناء الخمس سنوات الأخيرة من عمرها ، على أنها شعرت برغبة ملحّة في مصادقتها وهي فتاة ، ولكن تلك الأم قد نسيت أن إنماء روح صداقة مع انتميا يستلزم تجارب صداقة مستمرة ، بحيث تضمن رضا الطرفين وتستمرى انتباه كل منهما ، وبحيث يتكوز ميل صداقة وتعاون وتقام ، ينمو بممارسته في المشا كل اليومية حتى يؤثر في حياة الفتاة .

من أجل ذلك نصحت الأم أن تعمل كل ما تستطيع لكي تتخطى بعض الوقت مع ابنتها كل يوم ، حتى يتسنى لهما الحصول على تجارب سعيدة معاً ، وتكون هذه التجارب مثل المني البسيط حول الحديقة ، أو الجلوس في مكان معاً للتحدث الطريف أو ما شاكل ذلك ولكن الأم لم ترقها هذه النصيحة ، وقالت إن مثل هذه الأشياء « ينقص من سلطانها على ابنتها » ويدعو إلى عدم حفظ مركزها ، وأشارت إلى أن كل ما تريده « صداقة بدون منح السكافة

بينهما » ، واستمرت المشادة بين الأم وابنتها إلى أن تزلت الأم ، ففهمت ان هناك فرقاً عظيماً بين مجرد المعرفة ، والصدافة أو المرافقة .

وبعد سنتين من هذا التاريخ قالت الأم « إني أعجب إذا كنت سأستطيع تعويض هاتيك الخمس سنين التي أضعتها في جفاء مع ابنتي ، ولقد وجدت أني ملزمة بإيجاد شعور حقيقي من المودة والصدافة بيننا ، وأيضاً كان لزاماً على أن أزيل من ذهن ابنتي شعوري الجمود والقسوة اللذين جعلاهما قليلة الفهم عديمة الاهتمام بالأفراد الذين في بيتها » .

تأثير الوالدين في أبنائهم :

بما أنه يشترك في إنتاج الطفل فردان (هما أمه وأبوه) فلهما عليه تأثير كبير من حيث توجيهه ميوله ، فهما معاً يعرضانه لأنواع من التجارب الخاصة المحددة ، وأحياناً يبنينا نجد أحدهما أكثر فهماً للطفل وأرأف به ، نجد الآخر شديد النقد له ، ضيق الخلق معه ، كثير الجفاء له . وغالباً يظن هذا الأخير أنه لا يقابل من الطفل بمثل ما يقابل به الجانب الأول ؛ وذلك لأنه متسلط مع الطفل أو كثير الشفقة به ، ويسبب هذا الشعور إخلال التوازن بين الوالدين . وهذه الحالة من أشد العوامل إنتاجاً لفشل الترابط العائلي .

فالطفل عند ما يحاول إطاعة أوامر والديه ، يشعر دائماً بأنه ملزم بتطبيب نفس ذلك الوالد وتهديئة نفس تلك الأم خوفاً منهما ، وخشية غضبهما ، بدل أن يقبل على تنفيذ أوامره برغبة ، وطمعاً في تعلم طرق عمل الأشياء منهما ، فلنا منه أنهما على حق فيما يأمرانه به . لذلك نرى الطفل يتعود جملة عادات خلقية منحطة كعدم الإخلاص ، والكذب . وأمثال هؤلاء الأطفال من بنين وبنات هم الذين ينشئون ميء الحظوظ ، لا اعتماد لهم على أنفسهم ، بل تتأثر أفكارهم وأعمالهم برأي آخر فرد يتحدث إليهم ، وأمثال هؤلاء لا يوثق بكلامهم ويشك في إخلاصهم وولائهم ، ونحزن على اعتراضهم في الحياة ، ويستحقون منا الإشفاق بهم .

محبة الأطفال وأهمية استعمالها بحكمة :

إن إتمام العلاقات الانفعالية في الطفل أمر له أهميته وخطورته ، ومن الضروري أن يتعلم الطفل كيف يحب ، إلى جانب ما يتعلم من باقي الأشياء الضرورية في الحياة . وإن معرفة نوعية وكنه الحب الأبوي لمن أهم الأمور ، لأن ذلك ضروري جداً في حالة تشكيل وصقل الرابطة الانفعالية بين الآباء والأبناء . لذلك يلزمنا تمييزاً إذا كان حبهما أنانياً أو غير أناني ، إن كان حباً تتجلى فيه المنفعة على فهم الطفل والعمل على إرشاده وتكوينه ليحتل مكانه الطبيعي في

الحياة أم عكس ذلك ، إن كان حياً يحيط الطفل كعضو من البشرية جمعاء لاتابعاً لأسرة خاصة أو العكس .

وكيف ينمو حب كهذا ؟

هل ينمو بواسطة الملامح الدالة على المحبة في أبسط مظاهرها ، كتمديد الرضيع ، ومداعبة الطفل ، وتشجيع العبي ؟ ! وهل تنمو طائفة الحب هذه ومشاركة المواطن عندما يبدأ احتياج الطفل للإيضاح عن مكنونات نفسه بطرق ربما لا يستطيع الوالدان فهمها ؟ ! وهل نوعية حب الوالدين من النوع الذى يستطيع إنماء مربيات أولادهما إلى علاقة صدقة بينهما إذا ما كبر الأطفال وصاروا غلماناً ؟ ! وهل تستطيع المربيات إنماء مواهب الأطفال الظريفة دون تسليط أفكارهن الخاصة عليهم ؟ !

سواء أكان هذا أم ذاك فإنه يجب على الآباء أن يمكنوا أبناءهم من مواجهة الحقائق وجهاً لوجه ، وأن يعلم هؤلاء الآباء أنهم تابعون للماضى وأطفالهم مهيئون للمستقبل ، وأن الآباء يرون الحياة فى ظل الماضى ، أما أطفاله فيرون دائماً ممكنات المستقبل .

وحب الآباء يجب أن يقوى دائماً بينهم كيفية تربية الطفل والأخذ بيده وفق طبيعته واحتياجاته ومؤهلاته ، حتى يمكنه التصميم على الخطوة التى يجب أن تعقد عليها صلاتهم السليمة .

والآباء الذين يتوصلون إلى فهم ذلك يصبح زاماً عليهم ألا يتسموا أو يشجعوا الأعمال التى تصدر عن الطفل وعمره ثلاث أو أربع سنوات كأعمال مضحكة أو وقحة دون قصد ، فإنهم إن سمحوا لهم بعملها إذا ما بلغوا السادسة والسابعة من أعمارهم ، ولا بد أن يقدروا أنهم لن يستطيعوا منعهم منها إلا بالعقاب .

وهنا يجب أن يرسم الآباء خطة حكيمة لتربية أبنائهم ، يكون ضمن برنامجها ألا يسمحوا لأنفسهم بتشجيع ما يستلج من صفاتهم وهم صغار أبرياء وقع منهم وهم كبار ويعقلون ، وفى ذلك من اقتصاد النشاط والجهود والمشاق الشئ الكثير .

أما إذا اتبع الطريق الهمجى فى تربية الأبناء كما هى الحال الآن ، فإن ذلك يكون من الخطر العظيم والخطال البين فى حفظ صلات المحبة والمودة بين الآباء وأبنائهم ، إذ تبعاً لذلك يظل الطفل محتاجاً إلى الرعاية بقدر ما يشعر بالحيرة الدائمة .

وليس شعور محبة الآباء بأكثر أهمية من أغراضهم نحو أبنائهم ، فإنه - كما قدمنا - توجد الاتجاهات ، وتنمو الميول بواسطة التجارب اليومية ، ولكن هل هذه الاتجاهات وتلك الميول هى التى تعلم الطفل قيم ألوان الحياة المختلفة وشؤونها ؟ ! إنها كذلك ، خصوصاً بالنسبة للوالدين

والاشتقاء ، والشقيقات ، والأصدقاء ، وفي حالات اللعب والعمل ، وبالنسبة للحيوان والخن والدين والرغبة في علم مالم يعلم ، وفهم معنى مالم يفهم ، وكل هذا يتوقف نموه وتكوينه على مرمى الحب الأبوى .

وهن العلاقات بين الآباء والأبناء:

كما اعترضت الوالدين صعوبة معينة بالنسبة لسلوك أحد أطفالهما ، فهذا دليل واضح على أن العلاقة بينه وبينهما ليست مرضية ، وبذلك لم يتمكنوا من الوصول بابنهما إلى الغاية التي قصدوا إليها ورغبوا فيها . وبالنظر إلى هذا الاختفاء ، كثيراً ما يصرح الوالدان ، بأن سلوك ابنهما غير مرض ، فهو عنيد ، يخالف للأوامر ، لا يوثق به ، وهو متلف ومشاغب ، يذكر أن هذا دون استحياء أو خجل من نفسيهما لعجزهما عن تحويل سلوكه هذا إلى سلوك آخر أفضل منه . ومن المدعش أنهما لا يقطنان إلى أن هذا الاختلاف سببه ضعف العلاقات بينهما وبين طفلهما . لذلك كان حتماً علينا أن ننظر إلى المشاكل السلوكية في الأطفال كأنظر في كل مشاكل العلاقات الإنسانية .

ولقد نلاحظ المرة بعد المرة ، أن أحد الآباء لا يجد صعوبة ما في اكتساب مساعدة ومشاركة طفله ، ولقد يقرر هذا الوالد أن طفله مطيع ولطيف ، في حين يقرر الآخر أنه لم يستطع اكتساب مساعدة ومشاركة طفله لأنه يخالف عنيد وخشن ، ووالد آخر يستطع كسب ثقة الطفل وصدافته ، وآخر يجده جافياً له ومقاوماً لإرادته .

وكثيراً ما نسمع بعض الآباء يقولون : « عندي أربعة أطفال ، لم تعترضني صعوبة ما مع ثلاثة منهم ، أما رابعهم (فكلهم) ، فهو يختلف عنهم كثيراً لشدة عناده ، وعبوس وجهه ومخالفته ، ثم أقوى الرأس لدرجة تحير ، ولا أدري ماذا أصنع معه ، وترون أنني غير متعب مع باقي أطفالي ، وبذلك لا يستطيع أحد أن يقول إنني لا أفهم عن تربية الأطفال شيئاً »

بناءً على أمثال التصريح المتقدم ، يكون من الصعب دائماً إقناع أمثال هؤلاء الآباء بأن أشباه الطفل الرابع هذا ؛ إنما يرجع عبوسه وعناده إلى التجارب التي عرضه والداه لها ، مما أدى إلى تكوين هذه الميول والعادات عنده .

ونسمع كثيراً في هذه الأيام ، عن الاختلافات الفردية عند الأطفال . على أننا لا ننتفع أنفسنا بأن هذه الاختلافات تعرض الأطفال لتجارب متعددة ، مما يعمل على ازدياد مشاكتهم وتعتيد حياتهم ، أكثر مما يعود عليهم من اكتساب المنافع والخبرة ، لعدم رعايتهم وحمايتهم الكافيتين أمام هذه التيارات السريعة المتواصلة ، في عصر مركب كالعصر الذي نعيش فيه

وفي هذه الحال ترى ضرورة سن خطة حكيمة لتربية الأطفال في الأسرة ، وليس معنى هذا أنه يجب على الوالدين اتباع شكل خاص من التربية لكل طفل على حدة في الأسرة الواحدة ، وإنما معناه أن يلجأ إلى الخطة المرسومة كمثل أعلى للتربية في هذه الأسرة ، وإنما تمنح هذه التربية بتنوع ، بحيث تفي بحاجات الأطفال كل بحسب ما يناسبه .

الطفلة « فريدة » ولها من العمر عشر سنوات - أحضرت إلينا ، لأنها أخفقت في أعمالها المدرسية ، ولم تكن مهتمة بالألعاب ، وكانت تغار من أخيها البالغ الحادية عشرة من العمر ، وكانت لا تطيع والديها ، لأنها لم تقبها لما كانت تكلف بعمله ، فكانت في نظر والديها ، من الأطفال غير المرضى عنهم .

فلما حدثنا فريدة وسألناها عن الأشياء التي تحب أن تعملها ، قالت « لا أعرف شيئاً عن الأشياء التي أحب أن أعملها » ، ولم تظن أن هناك شيئاً بل أشياء تستطيع عملها جيداً . وبعد أن تراءت فريدة عدة مرات على العمل التجريبي ، وشعرت باطمئنان ، وروح صداقة ، وجدت من نفسها رغبة لعمل أشياء كثيرة ، بل لقد أحست أنها عملت أشياء كثيرة فعلاً ، ولكنها تطمع في أن تعمل أحسن من هذا كله ، لدرجة أنها ختمت حديثها معنا باقتراح حضورها مبكرة إلى العمل ، لكي ترقب بعضاً من الكتب ، وتنقل بعض الخبر من القماطر .

هنا ظهر من حال فريدة أنها فتاة حساسة للغاية ، وإن عندها قوى عقلية ممتازة ، واتضح أن المشكلة لا بد أن تكون في ناحية أخرى . وبعد أسبوعين ، جاءت الأم فجأة إلى العمل لتستعلم عن سبب ترك فريدة المنزل مبكرة عن الميعاد المحدد ساعة كل يوم بحجة أنها يجب الانتأخر عن عملها ! فلما أخبرت عن الحالة التي وصلت إليها فريدة أبت أن تصدق ما سمعت أذناها ، وظلت على اعتقادها ، وهو أن فريدة أصبحت شديدة الشوق للذهاب إلى العمل ، كما اعتقدت أنه لا بد يوجد شخص في العمل كرس كل وقته للملاحظة ابتها وتحريضها على العمل ، وارتأبت كثيراً في أن فريدة لم تشغل وقت أي شخص بالعمل ، وأنهم لم تراقب مطلقاً ، وأنها تبرعت من تلقاء نفسها بالحضور مبكرة عن طاعتها .

وهنا اتضح أن الأم من فريق الأمهات النكدات القلقات ، وأنها لم تكلف نفسها مشقة تعليم فريدة كيفية عمل أي شيء ، كما أنها لم تسمح لها بوقت كاف لتأدية أي عمل بل عوضاً عن ذلك اتهمتها دائماً ، وانتقدتها وقارنتها بأخيها الهادئ الطبع ، الطبع لأوامرها ، والذي نشأ على أن يكون رجلاً ، ولوانه ما زال في عهد طفولته . وكانت الأم دائمة الشكاية من وجع الرأس ، كما انتظرت من « فريدة » أن تقوم بأكثر مما تستطيعه من الأعمال المنزلية : واتضح

الحقيقة ، وهى أن فريدة كانت تؤدى أعمالاً منزلية أكثر مما تستطيع أدائه فتاة فى عمرها .
وظهر أن عدم خبرتها واحتياجها إلى الإرشاد والمران سبب النزاع الدائم بينها وبين أمها ،
كما سبب هذا الشقاق ذاته شدة حساسية فريدة ، بحيث جعلها تخطئ كثيراً فى عملها
إذا ما أحست أنه غير مرض .

من ذلك نرى أنه يجب على الوالدين أن يفهموا طبائع أبنائهم ، فإن هذا هو السبيل القويم
الذى يجب أن يسلكه الآباء حتى يأمنوا على أطفالهم من التجارب التى يعرضونهم لها ، بحيث
ينمون أصحاء الأجسام ، سليمى العقول والأخلاق .

والتجارب التى يشارك الآباء أبنائهم فيها توجد علاقة ، إما أن تكون تعليمية مساعدة ،
وإما أن تكون متلفة ضارة فى تربية أى طفل . فإذا كان سلوك طفل غير مرض ، فيلزمنا
قبل كل شيء أن نختبر التجارب التى ملأت حياته ، وإذا أردنا تغيير سلوكه ، فلنغير تجاربه
أولاً ولنزل ما يكون منها عائقاً لتكوين اتجاهات وميول نافعة فى التربية ،
ولنستبدل بالميول الأقل نقماً بميولاً أخرى تنمو قوة حسنة . فإذا جعلنا ذلك غرضنا
فإننا نهض بالتربية التكوينية ، عن طريق العلاقات الصالحة بين الوالدين وأبنائهم .

زينب الحكيم

مخاطرات الشباب

رواية مصرية حافلة بالمواقف النبيلة والمفاجآت العنيفة
تجمع إلى الحب العذرى تحليلاً دقيقاً لأنهم خواج النفس الشريفة
بقلم الأديب : حسن رشاد بمعهد التربية

منقحة ومصدرة يبحث فى أدب القصة وتطورها بقلم صاحب « المعرفة »
صفحاتها (٢٠٨) ومنها (٥) خمسة قروش مصرية
تطلب من المؤلف أو من إدارة « المعرفة »